

الباب السادس

فيما فسره من الأحاديث النبوية وإبداء أسرار
فيها على مذهب أهل الخصوصية

قال رضى الله عنه في قوله ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله اجتماعا على ذلك وتفرقا عليه، ورجل دعت امرأته ذات حسن وجمال فقال: إني أخاف الله. ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه من خشية الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»^(١).

فقال الشيخ رضى الله عنه:

الإمام العادل هو القلب.

ورجل قلبه معلق بالمسجد حتى يعود إليه، أى ورجل قلبه معلق بالعرش، فإن العرش مسجد قلوب المؤمنين.

ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه أى خاليا من النفس والهوى.

ورجل تصدق بصدقة أى فأخفاها عن نفسه وهواه.

وكذلك قال في قوله عز وجل: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾^(٢) أى من النفس والهوى.

فاعلم أن هؤلاء السبعة جازاهم الحق سبحانه من حيث معاملتهم إياه.

أما الإمام العادل فإنه عدل في عباد الله فأوى المظلوم إلى ظل عدله فأواه الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

وأما الشاب الذى نشأ في عبادة الله فإنه آوى إلى الله معرضا عن هواه وآويا إلى كنف موله فصنع الحق معه ذلك في الآخرة جزاء كما صنع هو ذلك مع الله في الدنيا معاملة.

وأما الرجل الذى قلبه معلق بالمسجد حتى يعود إليه فإنه أثر طاعة الله وغلب عليه حب الله فلذلك صار قلبه متعلقا بالمسجد لا يحب اليراع عنه؛ لأنه يجد فيه روح القرية وحلاوة الخدمة، فأوى إلى الله مؤثرا لربوبيته، فأواه الله وأظله بظله يوم لا ظل إلا ظله جزاء لما سبق من معاملته.

وأما الرجلان اللذان تحابا في الله اجتماعا على ذلك وتفرقا عليه، فإنها تواعلا بروح الله وتآلفا بمنجبة الله وكان ذلك منها انحياسا^(٣) إلى الله فأواها الله بظله يوم لا ظل إلا ظله.

(٢) مريم: ٣.

(١) رواه مالك والترمذى وأحمد والشيخان والنسائى ومسلم.

(٣) أى: ميلا وجرهوا إلى الله سبحانه وتعالى.

وأما الرجل الذى دعتة امرأة ذات حسن وجمال فقال: إني أخاف الله فإنه صلى نار مخالفة الهوى مخافة من المولى وخالف بواعث الطبع المعارضة للتقوى، فلما خاف من الله هرب إليه، ولما هرب إليه ههنا معاملة، آواه الله إليه فى الآخرة مواصلة، فأظله الله بظله يوم لا ظل إلا ظله. وأما الرجل الذى ذكر الله خاليا ففاضت عيناه فإنه لم تفض عيناه إلا من القروح التى أحرقت قلبه إما حياء من الله أو شوقا إليه أو خوفا من ربوبيته أو لشهود التقصير معه، فلما فعل ذلك حيث لا يراه أحد إلا الله الواحد الأحد كان ذلك منه معاملة لله وانحياشا إليه بالاعتذار إليه أو بالشوق إليه فأوى إلى الله فأظله الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله.

وأما الرجل الذى تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه فإنه قد أثر على نفسه ببذل الدنيا إيثارا لحب الله على ما تحبه نفسه؛ لأن شأن النفس حب الدنيا وعدم البذل لها فلا يبذلها إلا من أثر الله عليها؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ: «والصدقة برهان»^(٤).

أى برهان يدل على أن العبد أثر مولاه على نفسه وهواه، فلما مال هذا العبد إلى الله بالمعاملة من الله عليه بأن أظله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله. وتشترك الأقسام السبعة فى معنى واحد؛ فلذلك جوزوا جزاء واحدا. اشتركت فى أن كلا من هؤلاء السبعة صلى حر مخالفة الهوى فى الدنيا، فلم يذقه الله حر الآخرة، وقد قال ﷺ حاكيا عن الله تعالى: «لا أجمع على عبدى خوفين ولا أمنين: إن أمنت فى الدنيا أخفته فى الآخرة وإن أخفته فى الدنيا أمنت فى الآخرة».

وقال رضى الله عنه فى قوله ﷺ:

«يَسْرُوا وَلَا تَعْسَرُوا».

أى دلّوهم على الله ولا تدلّوهم على غيره، فإن من دلّك على الدنيا فقد غرّك، ومن دلّك على الأعمال فقد أتعبك، ومن دلّك على الله فقد نصحك.

وقال فى قوله ﷺ:

«رَأَيْتُ الْجَنَّةَ فَتَنَّاوَلْتُ مِنْهَا عِنْقُودًا لَوْ أَخَذْتَهُ لَأَكَلْتُمُ مِنْهُ مَا بَقِيََتِ الدُّنْيَا»: فقال رضى الله عنه:

«الْأَنْبِيَاءُ يَطَالِعُونَ حَقَائِقَ الْأَشْيَاءِ، وَالْأَوَّلِيَاءُ يَطَالِعُونَ مُثُلَهَا؛ فَلِذَلِكَ قَالَ الرَّسُولُ ﷺ:

«رَأَيْتُ الْجَنَّةَ».

ولم يقل كَأَنى رَأَيْتُ الْجَنَّةَ.

وقال حارثة لما قال له رسول الله ﷺ: كيف أصبحت يا حارثة؟

قال أصبحت مؤمناً حَقًّا.

فقال ﷺ: لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك؟

قال عَزَبَتْ (٥) نفسي عن الدنيا فاستوى عندي ذهبها ومدرها، وكأني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة يتنعمون، وكأني أنظر إلى أهل النار في النار يعذبون، وكأني أرى عرش ربي بارزًا، من أجل ذلك أسهرت ليلي وأظلمات نهاري.

فقال له الرسول ﷺ: يا حارثة عرفت فالزم.

ثم قال ﷺ: «عبد نور الله قلبه (٦) بنور الإيمان».

فقال حارثة: كأني أنظر ولم يقل رأيت؛ لأن ذلك للأنبياء دونه، وكذلك قول حنظلة الأسدی لرسول الله ﷺ: تذكرونا بالجنة والنار حتى كأننا نراها رأى عين (٧). ولم يقل حتى نراها رأى عين لما قدمناه.

وفي حديث حارثة فوائد عشرة:

الأولى: أنه لما سأل النبي ﷺ حارثة فقال له:

كيف أصبحت يا حارثة؟

لم يقل حارثة: غنيًا ولا صحيحًا ولا شيئًا من الأحوال البدنية أو الأمور الدنيوية؛ لأن حارثة علم أن رسول الله ﷺ أجّل من أن يسأل عن دنیا، بل فهم عنه أنه إنما سأل كيف حاله مع الله فلذلك قال الصحابي:

أصبحت مؤمنًا حقًا.

أما أبناء الدنيا إذا سئلوا فلا يخبرونك إلا عن دنياهم، وربما أخبروك إذا سألتهم عن الضجر بأحكام مولاہم، فالسائل لمن هذا وصفه مشارك له فيها استشاره بسؤاله لجریان سببه منه. وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه لرجل أتى من الحج: كيف كان حجكم؟ فقال ذلك الرجل: كثير الرخاء كثير الماء، فسعر كذا وكذا وسعر كذا وكذا، فأعرض الشيخ عنه وقال: تسألونهم عن حجهم وما وجدوا فيه من الله من علم ونور وفتح فيجيبون برخاء الأسعار وكثرة المياه حتى كأنهم لم يسألوا إلا عن ذلك.

الفائدة الثانية: أنه ينبغي للمشايع أن يتفقدوا أحوال المريدين، ويجوز للمريدين إخبار الأستاذين وإن لزم من ذلك كشف حال المريدين؛ لأن الأستاذ كالطبيب وحال المريد كالعورة والعورة قد تبدو للطبيب لضرورة التداوى.

الفائدة الثالثة: انظر إلى قوة نور حارثة في قوله: أصبحت مؤمنًا حقًا، فلولا أنه منور بنور البصيرة الموجبة لمحض اليقين والتحقق بالسنة ما أخبر بذلك وأبداه أثبت لنفسه حقيقة الإيمان بين

(٥) أى: عزفت وأعرضت كارهة.

(٦) رواه البزار بسند ضعيف عن أنس، والطبراني في الكبير من حديث الحارث بن مالك. وسنده ضعيف أيضًا وكل منها يتوًى الآخر. والمعنى في الجو الإسلامى صحيح.

(٧) رواه مسلم وسيأتى به ابن عطاء الله بعد ذلك.

يدى صاحب المحو والإثبات، وإنما أبدى ذلك حارثة لأنه علم أن طواعية رسول الله ﷺ واجبة، والرسول قد استخبره عن حاله فلم يسعه الكتم وأبدى ما علم أن الله تفضل به عليه ببركات متابعة رسول الله ﷺ ليفرح له رسول الله ﷺ بمئة الله فيشكر الله عنه ويسأله تثبيت ما أعطاه.

مثل هذا ما ذكره بعض العلماء العارفين قال:

وقعت زلزلة بالمدينة زمن خلافة عمر رضى الله عنه، قال عمر؛ ما هذا، ما أسرع ما أحدثتم، والله لئن عادت لأخرجن من بين أظهركم؟

فانظر رحمك الله هذه البصيرة التامة كيف أشهدته أن الزلزلة إنما هي من حدث كان، وأن الحدث منهم، وأنه برىء منه، فهل هذا إلا من نور البصيرة الكاملة التي وهبها عمر رضى الله عنه. وكذلك ضربه لأبى هريرة رضى الله عنها في صدره حين وجد معه نعلي رسول الله ﷺ وقد أمره أن من لقيه من وراء الحائط يشهد أن لا إله إلا الله أن يبشره بالجنة ورجوعها إلى رسول الله ﷺ، وقول عمر رضى الله عنه: يا رسول الله، أنت أمرت أبا هريرة أن يأخذ نعليك ويبشر من لقي من وراء الحائط يشهد أن لا إله إلا الله؟

قال: نعم.

قال: لا تفعل يا رسول الله خلّهم يعملوا.

فقال رسول الله ﷺ: خلّهم يعملوا.

وهاتان الواقعتان تعرفانك بعظيم قدر عمر رضى الله عنه، ووفور أخذه من رسول الله ﷺ، واختطافه من نوره. وهذا الحديث مروي في صحيح مسلم وإنما ذكرناه ههنا مختصراً (٨).

الفائدة الرابعة: يفهم من هذا الحديث انقسام الإيمان إلى قسمين: إيمان حقيقي وإيمان رسمي؛ فلذلك أخبر الصحابي بقوله: أصبحت مؤمناً حقاً، والحديث يشهد له أيضاً.

وروى البخارى يرفعه إلى رسول الله ﷺ أنه قال:

(٨) ونصّه كما في صحيح مسلم عن أبى هريرة قال:

كنا قعوداً حول رسول الله ﷺ معنا أبو بكر وعمر في نفر، فقام رسول الله من بين أظهرنا، فأبطأ علينا وخشنا أن يقتطع دوننا، وفزعنا فقمنا، فكنت أول من فزع، فخرجت أبغى رسول الله ﷺ حتى أتيت حائطاً للأنصار لبني النجار، فدرت به هل أجد له باباً، فلم أجد فإذا ربيع يدخل في جوف حائط من بئر خارجه - والربيع الجدول - فاحتفزت كما يحتفز الثعلب، فدخلت على رسول الله ﷺ فقال: أبو هريرة؟.. فقلت: نعم يا رسول الله. قال: ما شأنك؟.. قلت: كنت بين أظهرنا فقمنا فأبطأت علينا فخشنا أن يقتطع دوننا ففزعنا، فكنت أول من فزع، فأتيت هذا الحائط فاحتفزت كما يحتفز الثعلب، وهؤلاء الناس ورائي. فقال: يا أبا هريرة، وأعطاني نعليه، قال: اذهب بنعليّ هاتين فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه فيبشره بالجنة، فكان أول من لقيت عمر، فقال: ما هاتان النعلان يا أبا هريرة فقلت: هاتان نعلان رسول الله ﷺ بعثنى بهما من لقيت يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه بشرته بالجنة. فضرب عمر بيده بين يدي، فخرت لإسقي، فقال: أرجع يا أبا هريرة، فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأجهشت بكاءً، وركبني عمر فإذا هو على أثرى، فقال لي رسول الله ﷺ: مالك يا أبا هريرة، قلت: لقيت عمر فأخبرته بالذي بعثنى به، فضرب بين يدي ضربة خرت لإسقي. قال: أرجع. فقال له رسول الله ﷺ: يا عمر، ما حملك على ما فعلت؟.. قال: يا رسول الله، بأني أنت وأمي. أبعثت أبا هريرة بنعليك من لقي يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه بشره بالجنة؟ قال: نعم. قال: فلا تفعل فإنّي أخشى أن يتكل الناس عليها، فخلّهم يعملون. قال رسول الله ﷺ: فخلّهم.

«ذاق طعم الإيمان من رضى الله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً».
وروى أيضاً: قال ﷺ:

«ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان وطعمه: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن توقد نار عظيمة فكان أن يقع فيها خير له من أن يشرك بالله».
وقد جاء في الحديث أيضاً قال ﷺ:

«المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير»^(٩).
وقد قال الله سبحانه:

﴿أولئك هم المؤمنون حقا﴾^(١٠).

وهما صنفان: عباد آمنوا بالله على التصديق والإذعان، وعباد آمنوا بالله على الشهود والعيان. وهذا الإيمان الثانى تارة يسمى إيماناً، وتارة يسمى يقيناً؛ لأنه إيمان انبسطت أنواره، وظهرت آثاره، واستمكن في القلب عموده، وداوم السر شهوده، وعنه يكون خالص الولاية، كما أن على القسم الآخر يكون ظاهر الولاية.

وليس يستوى إيمان مؤمن يغلب الهوى، وإيمان مؤمن يغلب الهوى، ولا إيمان مؤمن تعرض له العوارض فيدافعها بإيمانه كإيمان مؤمن غسل قلبه من العوارض فلا ترد عليه لشهوده وعيانه، ولأجل هذا اختلف أهل الطريق في عيدين: أحدهما يرد عليه خاطر الذنب فيجاهد نفسه حتى يذهب ذلك عنه، والآخر لا يخطر له هذا الخاطر أصلاً أيها أتم؟
والذى لاشك فيه تفضيل هذا القسم الثانى فإنه أقرب لأحوال أهل المعرفة. والأول هو حال أهل المجاهدة.

ولأنه لا يكون القلب على هذه الصفة إلا والنور قد ملأ زواياه فلا جل ذلك لم يجد خاطر الذنب مساعاً.

الفائدة الخامسة: مطالبة رسول الله ﷺ لمخارطة بإقامة البرهان على ما أثبتته لنفسه، فبدل ذلك أنه ليس كل من ادعى دعوى سلمت له، وقد قال الله سبحانه:

﴿فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾^(١١).

﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾^(١٢).

فموازن الحقائق شاهدة للعباد أو عليهم، وقد قال سبحانه:

﴿وأقيموا الوزن بالقسط﴾^(١٣).

فمن ادعى حالاً مع الله أقيم عليه ميزانها فإن شهد له سلمناها له وإلا فلا، وإذا كانت الدنيا

(٩) رواه مسلم، وقامه: احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أنى فعلت كذا كان وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان.

(١٠) الأنفال: ٤.

(١١) النمل: ٦٤.

(١٢) البقرة: ٩٤.

(١٣) الرحمن: ٩.

على خسارة قدرها عند الله لا تسلم لك إلا ببيّنة تقيمها، فمن الأخرى أن لا تسلم لك مراتب الموقنين حتى يثبتها لك برهان أو تسلمها لك حقيقة.

الفائدة السادسة: كان الشيخ أبو العباس رضى الله عنه يقول: لو كان المسئول أبا بكر رضى الله عنه لم يطالبه الرسول ﷺ بإقامة برهان على ما ادّعى؛ لأن عظم رتبة أبي بكر رضى الله عنه شاهدة له من غير إظهار برهان، فأراد الرسول ﷺ أن يعرفنا الفرق بين رتبة أصحابه، فمنهم من هو كحارثة لما ادّعى حقيقة الإيمان طولب ببرهانه، ومنهم من هو كأبي بكر وعمر رضى الله عنهما يثبت لهما الرسول ﷺ الرتب وإن لم يثبتاها لأنفسهما ألا ترى الحديث الوارد عن الرسول الله ﷺ: أن بقرة في بني إسرائيل ركبها رجل وأجهدها فقالت: سبحان الله، لم أخلق لهذا إنما خلقت للحرث.

فقال الصحابة: سبحان الله، أبقرة تتكلم؟ فقال الرسول ﷺ: آمنت بذلك أنا وأبو بكر وعمر^(١٤)، وهما غائبان.

فانظر هذه المرتبة ما أفخمها، وهذه المنزلة ما أعظمها.

وسمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول: معنى قوله ﷺ: «آمنت بذلك أنا وأبو بكر وعمر».

أى من غير عجب، وأنتم آمنتم متعجبين، لأجل ذلك قالوا: سبحان الله، أبقرة تتكلم؟ وكان أبو العباس يقول: إن الملائكة لما بشرت زوجة إبراهيم عليه السلام بالولد قالت: ﴿اللد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخاً إن هذا لشيء عجيب﴾^(١٥).

فقال الملائكة لها:

﴿أتعجبين من أمر الله﴾.

أى أمر الله لا يتعجب منه، فلم يسمّها الحق صديقة، ومريم لما بشرت بالولد من غير أب فلم تتعجب من ذلك سمّاها الله صديقة فقال سبحانه:

﴿وأمه صديقة﴾^(١٦).

الفائدة السابعة: استدلال الصحابي على حقيقة إيمانه بزهده في الدنيا، وكذلك هو الإيمان إذا تحقق به من قام به أورثه الزهد في الدنيا؛ لأن الإيمان بالله يوجب لك التصديق ببلقائه، وعلمك بأن كل آت قريب يوجب لك شهود قرب ذلك فيورثك ذلك الزهد في الدنيا؛ ولأن نور الإيمان يكشف لك عن إعزاز الحق لك فتأنف همته من الإقبال على الدنيا والتطلع إليها مع أن الحقيقة تقتضى أن الزاهد في الدنيا مثبت لها، فإنه شهد لها بالوجود إذ أثبتتها مزهوداً فيها، وإذا شهد لها بالوجود فقد عظمها وهو معنى قول الشيخ أبي الحسن الشاذلى رضى الله عنه: والله لقد عظمها إذ زهدت فيها.

(١٤) رواه البخارى بنحوه في أحاديث الأنبياء.

(١٥) هود: ٧٢.

(١٦) جزء من آية ٧٥ من سورة المائدة وقامها ﴿كانا يأكلان الطعام، انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أى يؤمنون﴾.

ومثل هذا الزاهد فيما زهد فيه فناء الفاني عما فنى عنه، فإثبات أنك فاني عن الشيء إثبات لذلك الشيء فيما لا وجود له لا يتعلق به فناء ولا زهد ولا ترك.

ولنا في هذا المعنى أبيات كتبها لبعض الأصحاب يسمى حسناً:

حسنٌ بأن تدع الوجود بأسره	حسنٌ فلا يشغلك عنه شاغل
ولئن فهمت لتعلمن بأنه	لا ترك إلا للذي هو حاصل
ومتى شهدت سواه فاعلم أنه	من وهبك الأدنى وقلبك ذاهل
حسب الإله شهوده لوجوده	والله يعلم ما يقول القائل
ولقد أشرت إلى الصرح من الهدى	دلت عليه إن فهمت دلائل
وحديث كان وليس شيء غيره	يقضى به الآن اللبيب العاقل ^(١٧)
لا غير إلا نسبة مثبتة	ليذم ذو ترك ويحمد فاعل

الفائدة الثامنة: قول الصحابي رضي الله عنه: عزيت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي ذهبها ومدرها.

العزوب هو ترك الشيء بالتعزز له والإعراض عنه؛ إذ لو قال: تركت الدنيا لم يلزم من الترك عدم التطلع فرب تارك للشيء وهو له متطلع، فالعزوب إعراض مع كراهة وتحقير، ومن كشف الله له عن حقيقة الدنيا فهذا شأنه فيها، وقد قال الرسول ﷺ: «الدنيا جيفة قذرة».

وقال ﷺ للضحاك: ما طعامك؟ قال: اللحم واللبن.

قال: ثم يعود إلى ماذا؟ قال: إلى ما قد علمت يا رسول الله.

قال: فإن الله قد جعل ما يخرج من بني آدم مثلاً للدنيا^(١٨).

فمن كشف له عن حقيقة الدنيا فشاهدها جيفة قذرة فحرى أن يصرف همته عنها.

فإن قلت: فقد قال الرسول ﷺ: «الدنيا حلوة خضرة»^(١٩).

فاعلم أن الدنيا جيفة قذرة في مرائي البصائر، وحلوة في مرائي الأبصار.

فإن قلت: فما فائدة الإخبار بأنها حلوة خضرة؟ فاعلم أن قوله ﷺ أن الدنيا جيفة قذرة للتنفير، وقوله: الدنيا حلوة خضرة للتحذير؛ أي فلا تغرنكم بحلاوتها وخضرتها فإن حلاوتها في التحقيق مرارة وخضرتها يبس، ولهذا لما سئل رسول الله ﷺ عن أولياء الله قال:

«هم الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها».

الفائدة التاسعة: وقوف الصحابي رضي الله عنه على مستحق رتبته بقوله: وكأني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة يتمتعون ولم يقل نظرت، وقد تقدم ذلك من أن الأنبياء بطالعون حقائق الأشياء

(١٧) المراد: الحديث الذي رواه البخاري بسنده عن عمران بن حصين ونصه:

«كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء وخلق السموات والأرض».

(١٨) رواه أحمد والطبراني وفيه: علي بن زيد بن جدعان مختلف فيه ورواه ابن حبان.

(١٩) رواه الترمذي في الفتن والزهد، وابن ماجه في الفتن، والدارمي في الرقاق، وأحمد في مستند.

والأولياء يطالعون مثلها.

القائدة العاشرة: قوله: فمن أجل ذلك أسهرت ليلي وأظلمات نهارى؛ فحارثة عبد وصل بكرامة الله إلى طاعة الله، ألا تراه كيف قال في الأول: عزبت نفسي عن الدنيا، ثم قال بعد ذلك: فمن أجل ذلك أسهرت ليلي وأظلمات نهارى. فسبق عزوب نفسه عن الدنيا معاملته لربه. وكان الشيخ أبو العباس رضى الله عنه يقول: الناس على قسمين: قوم وصلوا بكرامة الله إلى طاعة الله، وقوم وصلوا بطاعة الله إلى كرامة الله، قال الله سبحانه: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ (٢٠).

ونور الله يرد على القلب فيوجب له الاتصاف بصفة الزهد في الدنيا والإعراض عنها ثم ينبت منه إلى الجوارح، فها وصل منه إلى العين أوجب الاعتبار، وإلى الأذن أوجب حسن الاستماع، وإلى اللسان أورث الذكر، وإلى الأركان أورث الخدمة.

والدليل على أن النور يوجب عزوب الهمة عن الدنيا والنأى عنها قول رسول الله ﷺ: «إِنَّ النُّورَ إِذَا دَخَلَ الصَّدْرَ انشَرَحَ وَانْفَسَحَ». فقول: يا رسول الله فهل لذلك من علامة؟ قال: «التجافى عن دار الغرور، والإناية إلى دار الخلود» (٢١).

وأما حديث حنظلة الأسدى فقد رواه مسلم في صحيحه، قال: لقي حنظلة أبا بكر رضى الله عنه فقال: نافق حنظلة.

فقال أبو بكر رضى الله عنه وما شأن حنظلة؟ قال: نكون عند رسول الله ﷺ فيذكرنا الجنة والنار حتى كأننا رأى عين، فإذا خرجنا من عنده عافسنا الضيعات والزوجات (٢٢) نسينا كثيراً. فقال أبو بكر رضى الله عنه: إنا لتلقى مثل ذلك يا حنظلة. ثم أتيا رسول الله ﷺ فقال حنظلة: يا رسول الله نافق حنظلة.

فقال رسول الله ﷺ: وما شأن حنظلة؟ فقال: نكون عندك يا رسول الله فتذكرنا الجنة والنار حتى كأنها رأى عين فإذا خرجنا من عندك عافسنا الضيعات والزوجات نسينا كثيراً.

فقال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده يا حنظلة لو تدومون على ما تكونون عليه عندى وفى الذكر لصافحتكم الملائكة فى طرقكم وعلى فرشكم، ولكن ساعة وساعة». ففى هذا الحديث ثمانى فوائد:

(٢٠) الثورى: ١٣.

(٢١) رواه ابن أبى حاتم وابن جرير بنحوه، وعبد الرزاق.

(٢٢) أى اجتهدنا فى شئون حياتنا ومع أهلينا فخالطناهم ولاعبناهم وعالجنا أمورهم.

الأولى: قول حنظلة: نافق حنظلة.

النفاق: مأخوذ من نافقاء اليربوع^(٢٣) وهو أن يجعل لبيته باين متى طولب من أحدهما خرج من الآخر، كذلك المنافق يظهر بظاهر الإيمان وله مسرب من الكفر باطن إذا عاتبه أهل الكفر على ما أظهر ما الإيمان فتح مسرباً من باطن كفره ليسلم من عتبه، وإذا ظهرت عليه ريبة أهل النفاق فعوتب عليها تصون من ذلك بظاهر الإيمان الذي أظهره؛ ولذلك أخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا، وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾^(٢٤).

فلما رأى حنظلة أنه يكون عند رسول الله ﷺ على حالة فإذا خرج وحاول أسباب الدنيا تغير حاله فلم يبق على نحو ما كان عليه عند رسول الله ﷺ خاف أن يكون ذلك نفاقاً لاختلاف حالته، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ وحمله الإيمان على أن أظهر ذلك ليتطلب الشفاء منه، ويشكو داءه لمن يجد الشفاء عنده، فلما شكاه ذلك لأبي بكر رضي الله عنه، قال له أبو بكر: إنا لنلقى مثل ذلك يا حنظلة. ولم يجبه أبو بكر رضي الله عنه؛ لأن رسول الله ﷺ كان بين أظهرهم، فلم ير أبو بكر أن يجيب حنظلة، ولو أن حنظلة أتى أبا بكر بعد وفاة رسول الله ﷺ لأجابه.

الفائدة الثانية: يستفاد من حديث حنظلة أن من حمله الصدق على إظهار ما به حصل له الشفاء إما بأن يقال إن ما ظننته داء ليس بداء، وإما أن يدل من الدواء على ما يزيل الداء فحنظلة قبل له إن ما ظننته داء ليس بداء.

الفائدة الثالثة: قول حنظلة لرسول الله ﷺ تذكرنا بالجنة والنار حتى كأننا رأى عين، ولم يقل حتى نراها رأى عين لما قدمناه من أن الأنبياء يطالعون حقائق الأشياء والأولياء يطالعون مثلها فلذلك قال حنظلة حتى كأننا رأى عين، ولم يقل حتى نراها رأى عين، كما قال حارثة، وكأني أنظر إلى أهل الجنة ولم يقل نظرت إلى أهل الجنة وقد تقدم هذا من قبل.

الفائدة الرابعة: ينبغي أن يقلل الدخول في أسباب الدنيا ما أمكن، فهذا الصحابي يقول: فإذا خرجنا من عندك عافسنا الضيعات والزوجات فنسينا كثيراً وقد قال رسول الله ﷺ.

«إن قليلاً من الدنيا يلهي عن كثير من الآخرة».

وقال ﷺ: «ما طلعت شمس إلا وبجنبيها ملكان يناديان: يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمُّوا إِلَى رَبِّكُمْ فَإِنَّمَا قُلْ وَكُفَى خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَأَهْلَى».

الفائدة الخامسة: قوله ﷺ: «لو تدمون على ما تكونون عليه عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة في طرقكم وعلى فرشكم».

فيه إشارة إلى أن الدوام على تلك الحالة عزيز، وأن عدم دوام العبد على تلك الحالة لا يوجب معتية، لما طبع عليه البشر من الغفلة، فكان الدوام على تلك الحالة كالمعسور.

(٢٣) اليربوع أو الجربوع أو الدرس أو ذو الرميح: حيوان صغير على هيئة الجرذ الصغير وفي حجمه تقريباً.

(٢٤) البقرة: ١٤.

الفائدة السادسة: كان الشيخ أبو العباس رضى الله عنه، يقول: لم يقل رسول الله ﷺ إن ذلك محال أن يكون أعنى ما رتب على تقدير الدوام وهو قوله: «لصافحتكم الملائكة في طرقكم وعلى فرشكم» فقد يكون من أولياء الله من يهبه الله ذلك.

الفائدة السابعة: إنما خصَّ الرسول ﷺ الفرش والطريق لأن الفرش محل الشهوات والطرق محل الغفلات، فإذا صافحتهم الملائكة في طرقهم وفرشهم فمن الأحرى أن تصافحهم في محل طاعاتهم ومواطن أذكارتهم.

الفائدة الثامنة: اقتضت حكمة الله سبحانه أن لا يستوى وقت كينونتهم عنده ووقت ذكرهم بما سواها حتى يعرف عظيم قدر رتبة محاضرتهم ﷺ وعزازة الذكر وجلالة منصبها.

وقال رضى الله عنه: سمع رسول الله ﷺ أبا بكر يقرأ ويخفى صوته، وسمع عمر يقرأ ويرفع صوته، فقال لأبي بكر: لم أخفضت صوتك؟ فقال: قد أسمعت من ناجيت.

وقال لعمر: لم رفعت صوتك؟ فقال لأوقف الوسنان وأطرد الشيطان. فقال لأبي بكر: ارفع قليلاً، وقال لعمر اخفض قليلاً.

قال الشيخ رضى الله عنه: أراد أن يخرج كلا منها عن إرادته لنفسه لمراد رسول الله ﷺ له.

وقال رضى الله عنه في قول رسول الله ﷺ:

«أنا سيد ولد آدم ولا فخر»:

أى ولا أفتخر بالسيادة، وإنما أفتخر بالعبودية لله سبحانه.

وكان كثيراً ما ينشد:

يا عمرو نادى عبد زهراء يعرفه السامع والرائى
لا تدعنى إلا بعبادتها فإنه أشرف أسمائى

وقال: كان الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه يقول:

المؤمن فى الدنيا أسير ولا فكاك للأسير إلا بإحدى ثلاث: إما بالحيلة، وإما بالفدية، وإما بالعناية.

وما ذكره الشيخ مأخوذ من قول رسول الله ﷺ:

«الدنيا سجن المؤمن» (٢٥)

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه فى تفسير هذا الحديث: شأن المسجون التحديق بعينه والإصغاء بأذنيه متى يدعى فيجيب.

وقال رضى الله عنه: الأنبياء إلى أممهم عطية ونبينا ﷺ هدية، وفرق بين العطية والهدية: لأن العطية للمحتاجين والهدية للمحبوبين، قال رسول الله ﷺ:

«إنما أنا رحمة مهداة» (٢٦).

وقال في قوله ﷺ: «السلطان ظلّ الله في الأرض» (٢٧): هذا إذا كان عادلاً، فأما إذا كان جائراً فهو ظلّ النفس والهوى.

وقال رضى الله عنه: مات رجل من أهل الصفة فوجد في شملته ديناران فقال ﷺ: «كَيْتَانِ من نار».

قال الشيخ: وقد مات على عهد رسول الله ﷺ كثير من الصحابة وتركوا أموالاً فإيا قال رسول الله ﷺ فيهم مثل ما قال في هذا؛ لأنهم لم يبطنوا خلاف ما أظهروا، وهذا الذى كان من أهل الصفة أظهر الفاقة، وكان عنده هذان الديناران، فلما أظهر خلاف ما أبطن قال الرسول ﷺ: «كَيْتَانِ من نار».

وقال: قال رسول الله ﷺ: «التاجر الصدوق يحشر مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين» (٢٨).

فقال رضى الله عنه: بأى طريق يحشر مع النبيين؟ وبأى طريق يحشر مع الصديقين، وبأى طريق يحشر مع الشهداء، وبأى طريق يحشر مع الصالحين؟

يحشر مع الأنبياء، فإن الأنبياء، شأنهم أداء الأمانة، بذل النصيحة. فيحشر مع الأنبياء بهذا الوصف، وهذا التاجر أدى الأمانة وبذل النصيحة.

ويحشر مع الصديقين؛ لأن الصديق شأنه الصفاء في الظاهر والباطن، قد استوى ظاهره وباطنه، والتاجر الصدوق كذلك، فيحشر مع الصديقين بهذا الوصف.

ويحشر مع الشهداء؛ فإن الشهيد شأنه الجهاد، والتاجر الصدوق يجاهد نفسه وشيطانه وهواه، فيحشر مع الشهداء بهذا الوصف.

ويحشر مع الصالحين؛ فإن الصالح شأنه أخذ الحلال وترك الحرام فيحشر مع الصالحين بهذا الوصف (٢٩).

(٢٦) ابن سعد والحكيم عن أبي صالح مرسلًا، والحاكم عن أبي هريرة وصححه.

(٢٧) رواه الطبراني والبيهقي في الشعب.

(٢٨) رواه ابن ماجه والحاكم والترمذى.

(٢٩) الدنيا المذمومة في العرف الدنيى هى الشهوات، يقول الله سبحانه:

﴿زين للناس حبّ الشهوات من النساء والبنين، والمقتاتير المقتطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحراث﴾ ثم قال سبحانه عن كل ذلك: ﴿ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾.

أما إذا استخدمت الدنيا من أجل الآخرة، فإنها لا تصيح شهوات، إنما تصيح معبراً يعبر به الإنسان - فى رضا من الله - إلى الآخرة، ومن أجل ذلك يقول سبحانه: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ فإذا ما صير الإنسان حياته تجارة وعبادة وغير ذلك. وإذا ما صير حياته عبادة بالنية الصادقة فى الاتجاه إلى الله فقد استجاب إلى الغاية التى أحبها الله سبحانه وتعالى من الخلق، وما ذكرناه هو نوع من الشرح لكلام الإمام الكبير أبى العباس المرسى رضى الله عنه.